

الثقافة السياسية

أولاً: المفهوم والأصول الفكرية: تشير الثقافة السياسية إلى "نمط الاتجاهات والمعتقدات والمشاعر السائدة" تجاه النظام السياسي وأدواره ومخرجاته في مجتمع معين. إنها ليست مجرد آراء فردية، بل هي "توجهات نفسية جمعية متجذرة تاريخياً" تُشكّل السلوك السياسي وتمنح المعنى للمؤسسات السياسية. أما عن الأصول الفكرية للثقافة السياسية، فيمكن أن نشير إلى:

- **مونتسكيو:** في كتابه "روح القوانين" (1748) ربط بين طبيعة النظام السياسي و"روح" الشعب.
- **ألكسيس دي توكفيل:** في "الديمقراطية في أمريكا" (1835) حلّل كيف أن "عادات القلب" (العادات، القيم، الدين) شكّلت نجاح الديمقراطية الأمريكية.
- **علم الاجتماع الكلاسيكي:** دوركهايم (مفهوم الضمير الجمعي)، فيبر (الأخلاق البروتستانتية).

ثانياً: النظرية التأسيسية: نظرية الثقافة السياسية (ألموند وفيربا): يعتبر كتابهما مرجعاً تأسيسياً في دراسة موضوع الثقافة السياسية. وقد استندت دراستهما إلى استطلاعات رأي في خمس دول (الولايات المتحدة، بريطانيا، ألمانيا الغربية، إيطاليا، المكسيك) لتطوير تصنيف ثلاثي للثقافة السياسية هي:

- أ. الثقافة السياسية الانعزالية (Parochial):** ومن خصائصها أنها تتميز باللاوعي بالمخرجات السياسية الوطنية، وانتماء محلي ضيق. ومن أمثلتها، الانتماءات القبلية التقليدية، أو الفلاحون في مجتمعات ما قبل الحداثة السياسية. كما يغيب في ظل هذه الثقافة السياسية تصوّر واضحاً للنظام السياسي.
- ب. الثقافة السياسية الخاضعة (Subject):** ومن خصائصها وجود وعي بالمخرجات السياسية (القوانين، الضرائب)، ولكن شعور سلبي بالالتزام، مع غياب الشعور بالفعالية أو الرغبة في المشاركة السياسية. ومن أمثلتها الرعايا في الملكيات المطلقة التاريخية أو الديكتاتوريات الحديثة حيث يتوقع المواطن الخضوع. ونجد في إطار هذا النمط من الثقافة السياسية تصوّر للنظام السياسي باعتباره نظام إخراجي (Output-Oriented) دون مدخلات.
- ج. الثقافة السياسية المشاركة (Participant):** ومن خصائصها وعي نشط بالنظام السياسي، شعور عالٍ بالفعالية السياسية، مع توجّه واضح وقوي نحو المشاركة في المدخلات (الانتخابات، الاحتجاجات، الاتصال بالمسؤولين). ومن أمثلتها المواطنون في الديمقراطيات الليبرالية المستقرة. أما عن تصوّر النظام السياسي فيُنظر إليه في ظل هذه الثقافة السياسية على أنه نظام ديناميكي للمدخلات والمخرجات.
- د. الثقافة المدنية: توليفة التوازن (Civic Culture):** يقوم هذا الشكل على مقولة مركزية تعتبر أن: "الثقافة المشاركة الخالصة ليست هي الأمثل للديمقراطية المستقرة، بل "الثقافة المدنية"، وهي "خليط أو توازن بين الأنماط الثلاثة". فمثلاً، قدمت كل من بريطانيا والولايات المتحدة نموذجاً للثقافة المدنية: أغلبية مُشاركة، ولكن مع وجود قطاعات خاضعة ومنعزلة تعمل كـ "مخزن" للقيم التقليدية والتسامح، مما يمنع الاستقطاب ويضمن الاستقرار. أما في الحالة الألمانية مثلاً، فنجد "خلل التوازن" (إفراط في الخضوع بعد النازية) وفي إيطاليا (انعدام الثقة المُزمن) وهما أوضح الأمثلة عن الصعوبات الديمقراطية.

إسهامات وإشكالات النظرية التأسيسية: لعل أبرز إسهام لها هو أنها ربطت لأول مرة بشكل منهجي كمي بين "التوجهات النفسية الجماعية" و"أداء النظام الديمقراطي". غير أن الإشكال هو أنها اتهمت بأنها "وصفية" و"ساكنة"، وكأن الثقافة قدر حتمي، وتفنقر لآلية تفسيرية للتغير الثقافي.

ثالثاً: النظريات التطويرية والتجديدية:

1/- نظرية التحديث الثقافي (Cultural Modernization): يستند مرجعها الأساسي إلى مجموعة مقولات أساسية هي:

- أ. مقولة التنشئة (Socialization Hypothesis): القيم الأساسية للفرد تتشكل في فترة التكوين (المراهقة وبداية البلوغ) وتتأثر بالظروف الاقتصادية-الأمنية السائدة آنذاك.
- ب. مقولة الندرة (Scarcity Hypothesis): الناس يُقدِّرون ما يعوزهم. الجيل الذي نشأ في "ندرة مادية" (حروب، كساد) يتبنى "قيم النجاة المادية" (الأمن الاقتصادي، الأمن الجسدي، النظام).
- ج. مقولة التغير القيمي (Value Change Hypothesis): الجيل الذي نشأ في "وفرة مادية وأمنية نسبية" (أوروبا وأمريكا ما بعد الحرب) يتبنى "قيم ما بعد المادية" (التعبير الذاتي، نوعية الحياة، المشاركة، حماية البيئة).

الانتقال من قيم النجاة إلى قيم التعبير الذاتي: يمكن رصد هذا الانتقال من خلال:

- قيم النجاة (Survival Values): الأولوية للنظام، الأمن الاقتصادي، الولاء للسلطة، المجتمع المتماسك.
 - قيم التعبير الذاتي (Self-Expression Values): الأولوية للحريات الفردية، التسامح مع التنوع، المشاركة السياسية غير التقليدية (كالاحتجاج)، حماية البيئة، المساواة الجندرية.
- ومن آثار هذا التحول نحو قيم ما بعد مادية على التنمية السياسية هو:

- زيادة المطالبة بـ "ديمقراطية حقيقية وتشاركية" تتجاوز الشكلية الانتخابية.
- تراجع الاحترام التلقائي للسلطة التقليدية (الدين، الحكومة).
- صعود "حركات اجتماعية جديدة" (بيئية، نسوية، حقوقية).

2/- نظرية رأس المال الاجتماعي والثقة المعممة: تتمحور المقولة الأساسية للكتاب المرجعي لهذه النظرية حول أطروحة أن: **أداء المؤسسات الديمقراطية يعتمد ليس فقط على تصميمها الرسمي، بل على "الثقافة المدنية" السائدة، والتي تقاس عبر مفهوم "رأس المال الاجتماعي".** ويشير روبرت بوتنام إلى أن مكونات رأس المال الاجتماعي هي:

- أ. الثقة المعممة (Generalized Trust): الاعتقاد بأن معظم الناس يمكن الوثوق بهم، مقابل الثقة المحدودة في العائلة أو الجماعة الضيقة.
- ب. معايير المعاملة بالمثل (Norms of Reciprocity): التي تُشير إلى قواعد التعاون الاجتماعية.
- ج. شبكات المشاركة المدنية (Networks of Civic Engagement): عضوية الأفراد في جمعيات طوعية أفقية (نوادي، فرق رياضية، جمعيات خيرية).

وفي كتابه المرجعي هذا، قدّم روبرت بوتنام مقارنة بين شمال إيطاليا وجنوبها، ليصل إلى الاستنتاجات الآتية:

- **مناطق الشمال:** تتميز بتراث مدني (حكم بلدي ذاتي)، رأس مال اجتماعي عالٍ، مجتمع مدني نابض، مؤسسات حكومية "فعالة".
- **مناطق الجنوب:** تتميز بتراث استبدادي (حكم نورماني-إسباني مركزي)، رأس مال اجتماعي منخفض، مجتمع "أفقي" منعزل، مؤسسات حكومية "غير فعالة".

ويصل إلى استنتاج هام مفاده أن **"المجتمعات المدنية تقوم بخلق حكومات فاعلة، وليس العكس."**

3/- التطور اللاحق: نظرية التراجع المدني: تستند المقولة الأساسية للكتاب المرجعي الذي يرصد هذا التطور اللاحق إلى فرضية مركزية هي: **الانخفاض الحاد في رأس المال الاجتماعي الأمريكي منذ الستينات بسبب:**

- تغيير التكنولوجيا والإعلام (التلفزيون).
- ضغوط الوقت والمال.
- تحولات ديموغرافية (تفكك الأسرة التقليدية)

ويصل إلى استنتاج مفاده أن هذا التراجع يهدّد الصحة الديمقراطية والمشاركة السياسية.

رابعاً: نظريات نقدية وبديلة: يمكن تلخيصها في:

1/- النموذج التنافسي للثقافة السياسية (ماركيز وإيتسون): جاء هذا النقد في مقالة مرجعية نُشرت في المجلة الأمريكية للعلوم السياسية، مُتضمّناً المؤاخذه الرئيسية الآتية: **انتقد هذا التيار فكرة الثقافة السياسية ككيان ثابت وموحد، مقترحاً نموذجاً ديناميكياً وتنافسياً:**

- النخب السياسية (الأحزاب، المرشحون، وسائل الإعلام) تتصارع على تعريف الواقع السياسي، وتشكيل اتجاهات الجمهور.
- الثقافة السياسية ليست معطى سابقاً، بل هي "حقل صراع" يتم إنتاجه وإعادة إنتاجه باستمرار عبر الخطاب السياسي.

وكمثال على ذلك، يمكن الإشارة إلى كيفية تحويل النقاش حول الضرائب من مسألة اقتصادية إلى مسألة "حرية شخصية" أو "عدالة اجتماعية".

2/- نظرية الصراع الثقافي أو الحضاري (هنتغتون): تتمحور هذه النظرية التي وردت في الكتاب المرجعي لصمويل هنتغتون حول أطروحة مركزية هي: **في عالم ما بعد الحرب الباردة، لم تعد الأيديولوجيات أو الدول القومية هي محور الصراع، بل الانقسامات الثقافية-الحضارية الكبرى.** ويميّز هنتغتون بين الحضارات الكبرى إلى الحضارة الغربية، الكونفوشيوسية، اليابانية، الإسلامية، الهندوسية، الأرثوذكسية السلافية، الأمريكية اللاتينية، الأفريقية. **والثقافة السياسية هنا تفهم على مستوى "كلي وهوية جماعية صلبة".** تم توجيه عديد الانتقادات لهذه النظرية، ولعل أهمها أنها اتُهمت بـ (Essentialism)، أي التعامل مع الحضارات ككيانات ثابتة ومُتحرّرة ومتحاربة بطبيعتها، وتجاهل التباين الداخلي الهائل والتفاعل التاريخي.

خامساً: المقارنات النظرية والتطبيقات

1/- المقارنات النظرية: من خلال المقاربات السابقة، يمكن تقديم المقارنة النظرية الآتية:

النظرية	المنظرون الرئيسيون	وحدة التحليل	آلية التغيير	المحرك الرئيسي	مثال توضيحي
الثقافة المدنية	ألموند وفيربا	الأمة/الدولة	بطيء عبر التنشئة	الخبرة التاريخية مع المؤسسات	استقرار الديمقراطية البريطانية (مزج متوازن)
التحديث القيمي	إنغلهارت	الأجيال	تغير الأجيال	الوفرة الاقتصادية والأمن المادي	صعود حزب الخضر في ألمانيا (جيل ما بعد المادية)
رأس المال الاجتماعي	بوتنام	المجتمع المحلي/الإقليمي	التراكم التاريخي/التراجع	قوة المجتمع المدني والتراث المدني	فعالية حكومة إقليم إميليا-رومانيا الإيطالية
الصراع الثقافي	هنتنغتون	الحضارة	صراع هوياتي جماعي	إحياء الهويات الدينية-الحضارية	صدام الغرب والعالم الإسلامي في الخطاب السياسي

2/- دراسات حالة مقارنة:

➤ الولايات المتحدة: من "الثقافة المدنية" إلى "الاستقطاب الثقافي"

أ. التقليد: نموذج ألموند وفيربا للمواطن "الفاعل ولكن المعتدل"، والمؤمن بالفردية والنجاح (قيم النجاة المختلطة بالتعبير).

ب. التحول: أظهرت أبحاث موريس فيورينا وألان أبراموويتز تحول الثقافة إلى "استقطاب أيديولوجي حاد".

■ فيورينا: الاستقطاب حقيقي بين النخب الحزبية، لكن الجمهور لا يزال معتدلاً (نظرية الجمهور غير المنقسم).

■ أبراموويتز: الاستقطاب امتد إلى القاعدة بسبب الفرز الاجتماعي-الثقافي، حيث أصبح الانتماء الحزبي جزءاً من الهوية الاجتماعية.

➤ اليابان: الثقافة الخاضعة والحديثة

أ. التناقض الظاهري: مجتمع "حديث تقنياً واقتصادياً"، ولكن بثقافة سياسية تقليدية "خاضعة ومتجانسة".

ب. التفسير الثقافي: قيم "الانسجام الجماعي"، "الولاء الهرمي"، و"تجنب الصراع المباشر" تُشكل ثقافة سياسية تتسم بـ:

- معدلات مشاركة انتخابية عالية لكن "غير ناقدة".
- هيمنة حزب واحد (الحزب الليبرالي الديمقراطي) لعقود.
- دور محدود للمعارضة التصادمية.

➤ 3/- ألمانيا: من ثقافة الخضوع إلى ثقافة المشاركة النقدية:

أ. مسار التحول: توثق ألمانيا "تغيراً ثقافياً دراماتيكياً".

ب. ما قبل 1945: ثقافة سلطوية خاضعة ("الطاعة للأمر").

ج. ما بعد الحرب: إعادة تنشئة قسرية نحو الديمقراطية تحت الاحتلال، لكن بقيت "ثقافة ديمقراطية هشة".

د. الستينات: تمرّد جيل الشباب (حركة 68) ضد الصمت الأبوي، وبداية تحوّل نحو "ثقافة مُشاركة ناقدة".

ه. الوحدة الألمانية: دمج ثقافة "مواطني جمهورية ألمانيا الديمقراطية السلبية" مع ثقافة "مواطني ألمانيا الغربية النشطين"، ما خلق تحديات مستمرة.

تحديات جديدة للتحليل الثقافي:

- "التأثير الرقمي": كيف تُشكّل "غرف الصدى" و"الخوارزميات" و"وسائل التواصل الاجتماعي" ثقافات سياسية فرعية معزولة ومعادية؟
- "العولمة": هل تؤدي إلى "تجانس ثقافي" (أمركة) أم إلى "تفعيل الهويات المحلية" المقاومة (استرداد الثقافة)؟
- "النخبوية الشعبوية": كيف تستغل النخب الشعبوية "الفجوات الثقافية" (بين القيم التقليدية وقيم ما بعد المادية، بين المركز والأطراف) لخلق شرعية جديدة؟

مراجعات نظرية حديثة: تقدم نظرية "رد الفعل الثقافي"، حيث أن التقدم السريع نحو قيم ما بعد المادية والتعددية يثير رد فعل عنيفاً من الشرائح الاجتماعية التي لا تزال متمسكة بقيم النجاة والهوية التقليدية، مما يغذي الشعبوية السلطوية. وعليه، تظل نظرية الثقافة السياسية أداة لا غنى عنها لفهم "الاستقرار والتغير والصراع السياسي". تطورها من نموذج ثابت ووصفي إلى نموذج ديناميكي وصراعي يعكس نضج الحقل وقدرته على تفسير تعقيدات السياسة المعاصرة.

ختاماً، يمكن القول أن الاتجاه الحديث هو التوليف بدلاً من الانحياز لنظرية واحدة:

- تفسير "الاستقطاب الأمريكي" يتطلب فهم "تغيّر القيم" (إنغلهارت)، و"تراجع رأس المال الاجتماعي" (بوتنام)، و"الصراع الثقافي" بين هويات مُتخيّلة (هنتنغتون).
- الديمقراطيات الجديدة (كإسبانيا أو تايوان) تُظهر كيف أن "التصميم المؤسسي الذكي" يمكنه "تسريع تغير الثقافة السياسية" نحو الديمقراطية، عكس ما افترضه بوتنام.